الاستقرار السياسي والاجتماعي

ضرورته وضماناته

حسن الصفار

الاستقرار السياسي والاجتماعي

ضرورته وضماناته

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

صدق الله العلي العظيم

سورة البقرة آية ٢٠٨

المحتويات

المحتويات ٩
مقدمة ١١
موجبات الاستقرار وضرورته ١٥
العلاقة بين الدول الإسلامية ١٩
الاستقرار السياسي الداخلي ٢٥
العلاقة بين الفئات والطوائف ٢٨
الإصلاح السياسي ٢٩
ثقافة التعايش ٣٠
مؤسسات أهلية للسلم الاجتماعي ٣٢
المشاركة الشعبية ضمانة الاستقرار ٣٧
الاستشارة على الصعيد الفردي ٤١
الشورى في الاجتماع الإسلامي ٤٣
مجتمع الشورى ٤٦
الشورى تربية وسلوك ٤٩
في ظل الشورى ٥٤

صيغة التطبيق ٥٧
إرادة التعاون وثقافة العمل الجمعي ٦١
العالم العربي وحال التعاون ٦٧
التعاون على الصعيد الأهلي ٧٠
إشكاليات وعوائق التعاون ٧٥
العلاقات والتأثير العاطفي ٧٨
مواقع الاتفاق ونقاط الاختلاف ٨١
الخوف من التعاون ٨٢
تنمية روح التعاون ٨٣
نماذج ومبادرات ٨٥
خطاب التطرف وأثره على الاستقرار والأمن ٨٧
اضطراب الأمن ٩٠
ضياع الطاقات ٩٠
التنفير من الدين ٩١
فخ صدام الحضارات ٩٢
الاستثمار الصهيوني ٩٤
تعويق حركة الإسلام ٩٥
بين الرفق والعنف ٩٦
المصادر ١٠٣

مقدمة

يمتاز الشرق الأوسط بثرائه الروحي، وعمق تاريخه الديني، فمن ربوعه انبثقت الأديان السماوية الكبرى: الإسلام، المسيحية، اليهودية. وهو يحتضن البقاع المقدسة التي يتجه إليها أتباع هذه الديانات من مختلف أنحاء العالم.

وفي الشرق الأوسط ظهرت حضارات عظيمة، كالحضارات التي طورّها الآشوريون والمصريون والعبرانيون والفرس، ثم جاءت الحضارة الإسلامية التي انصهرت فيها شعوب المنطقة من مختلف الأعراق والقوميات، وسادت العالم لقرون من الزمن.

إلى جانب الثراء الروحي، والتراث الحضاري، فقد تفجرت في الشرق الأوسط ثروات النفط الهائلة، الذي يمثل شريان الحياة الاقتصادية، ووقود الحركة الصناعية في العالم الحديث.

والنفط ليس هو الثروة الوحيدة لهذه المنطقة، بل تتوفر فيها مختلف الإمكانات المادية والبشرية، مع المواقع الجغرافية الإستراتيجية.

لكن الشرق الأوسط لا يزال مصنفاً ضمن أكثر المناطق تخلفاً في جميع حقول التنمية الإنسانية والاقتصادية.

ويكفي الإطلاع على التقارير التي أصدرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، عن التنمية الإنسانية العربية، للأعوام ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤م، لإدارك عمق التخلف الذي تعيشه شعوب هذه المنطقة من العالم، مع كل ما تمتلك من ثراء روحي وتراث حضاري وثروات مادية عظيمة.

إن من أهم أسباب التخلف في منطقة الشرق الأوسط هو فقدانها للاستقرار السياسي والاجتماعي، حيث تعيش مجتمعاتها حالة مزمنة من الاضطرابات الداخلية، نتيجة لاختلال العلاقات بين أطرافها السياسية والاجتماعية.

هذا الخلل في العلاقات السياسية والاجتماعية، أنتج شعوراً بالاستعلاء وممارسة للهيمنة عند بعض الأطراف، كما ولد إحساساً بالغبن واندفاعاً للمقاومة عند أطراف أخرى.

هذه الأرضية أتاحت الفرصة لبروز القوى المتشددة وسط كل جهة، وفتحت الباب لتدخلات من خارج المجتمع يستعين بها هذا الطرف أو ذاك، وهكذا أصبحت المنطقة ساحة للصراعات والنزاعات الداخلية، ومسرحاً للأطماع والنفوذ الخارجي.

وتنطبق هذه المعادلة المؤسفة على مختلف ميادين العلاقات في الشرق الأوسط، فيما بين حكومات المنطقة، وبين الأنظمة والشعوب، وبين القوميات المتنوعة، والاتجاهات الدينية والسياسية المتعددة في المجتمعات.

فكيف يمكن معالجة الخلل المزمن في العلاقات القائمة بين أطراف المجتمعات الشرق أوسطية، على الصعيد السياسي والاجتماعي؟

ومتى تتجاوز هذه المنطقة حالات الاضطراب والنزاع والاحتراب الداخلي؟

وما هي خارطة الطريق الذي سلكته الأمم الأخرى لتحقيق سلمها الاجتماعي واستقرارها السياسي؟

هذه التساؤلات وأمثالها كانت الدافع لكتابة هذه

السطور، والتي لا تشكل بحثاً مستوعباً لجوانب الموضوع، بمقدار ما تطرح أفكاراً وإثارات، تسلط الأضواء على مكامن الخلل في العلاقات القائمة بين أطراف المجتمع، وتعرض بعض الرؤى والمقترحات لاستشراف أفق جديد نقترب فيه من تحقيق أمل الاستقرار المنشود.

أرجو أن يكون في هذه السطور ما يسهم في تطوير ثقافة المجتمع وبلورة إرادته نحو السلم الاجتماعي والإصلاح السياسي.

والله ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

حسن الصفار

١٤٢٦/٤/٢٣هـ

٢٠٠٥/٦/١م

موجبات الاستقرار وضرورته

تبدو الحاجة إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي كواحد من أهم الحاجات، وأبرز التحديات، التي تواجه الأمة الإسلامية في هذا العصر.

فالاستقرار السياسي والاجتماعي هو الذي يضع الأمة على طريق الوحدة، ويتيح لها فرص التنمية والبناء، ويمكنها من التوجه للتحديات الخارجية. ومع انعدام الاستقرار يبقى التطلع للوحدة مجرد شعار وأمنية، وتتلاشى اهتمامات التقدم والبناء، وتضعف الأمة أمام مواجهة التحديات.

ونقصد بالاستقرار السياسي والاجتماعي وجود نظام مقبول من العلاقات بين قوى الأمة وأطرافها. ويقابل ذلك حالة الاضطراب، حين تختل علاقة الأطراف مع بعضها، فيقع بينها العداء والنزاع والاحتراب.

وقد حذر القرآن الكريم الأمة من خطر التنازع، الذي هو ناتج طبيعي لاضطراب العلاقات. يقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا

اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[١].

فالتنازع يؤدي إلى الفشل الداخلي في انجاز التنمية والبناء، وإلى الضعف الخارجي الذي عبرت عنه الآية بذهاب الريح ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، أي تضيع قوتكم.

وبينما ركز أغلب مفسري الآية الكريمة على تحذير الله تعالى ونهيه عن التنازع، دون أن يشيروا إلى أرضية تكوّنه، وأسباب وجوده، والتي تتمثل في اختلال العلاقات الداخلية واضطرابها، فإن الشيخ ابن عاشور التونسي، قد نبّه إلى هذه الحقيقة عند تفسيره للآية الكريمة، حيث قال ما نصه: «وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم والتشاور ومراجعة بعضهم بعضا».[٢]

ونرصد الخلل واضطراب العلاقات الداخلية للأمة في أبعاد ثلاثة:

العلاقة بين الدول الإسلامية.

---

(١)سورة الأنفال آية ٤٦.

(٢)ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج٩ ص١٢٣.

العلاقة بين حكومات البلاد الإسلامية وشعوبها.

العلاقة بين فئات الأمة مع بعضها.

العلاقة بين الدول الإسلامية

كانت الأمة تعيش في غالب عهودها السابقة ضمن كيان سياسي واحد، هو دولة الخلافة الإسلامية، ولكنها منذ قرن من الزمان، وبعد سقوط دولة الخلافة، أصبحت تعيش ضمن عدة كيانات سياسية، تمثل الدول القومية القطرية للأمة.

وتتنوع الأنظمة السياسية الحاكمة في الدول الإسلامية، في اتجاهاتها الفكرية والسياسية، ولم تصل بعد فيما بينها إلى صيغة من العلاقة الإيجابية، التي تؤهلها للتكامل، وتحولها إلى كتلة واحدة تضارع سائر التكتلات والأحلاف العالمية.

والأسوأ من ذلك انحدار العلاقة بين بعض هذه الدول الإسلامية إلى هاوية الصراع والنزاع، حيث وقعت حروب مأساوية دامية، ضحاياها أبناء الأمة من أطراف النزاع، ووقودها إمكانات الشعوب الإسلامية وثرواتها.

ومن آخر وأفظع نماذج هذه الحروب، ما عانته منطقتنا الخليجية من حربي الخليج الأولى والثانية، التي أشعلها النظام البائد في العراق ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية ودولة الكويت.

ودفعت المنطقة بكاملها ثمناً باهظاً لتلك الحربين الداميتين، من أرواح أبناءها، وخاصة من شعبي إيران والعراق، ومن ثرواتها حيث لا تزال دول المنطقة ترزح تحت أعباء آثار تلك الحربين.

كما حصلت نزاعات عسكرية بين دول إسلامية أخرى، أما النزاعات السياسية والإعلامية بين بعض الدول الإسلامية، فلا تكاد تمر سنة تخلو من أزمة بين دولة إسلامية وأخرى.

إن الخلاف على الحدود هو من عوامل النزاع الأساسية، وقد كان للاستعمار دور كبير في بذر بذور هذه الخلافات الحدودية، فعندما انسحبت القوى الاستعمارية من البلدان الإسلامية التي كانت تحتلها، تركت خلفها هذه الألغام، المعدة للانفجار، حيث رسمت الخرائط الحدودية، بشيء من الغموض في بعض خطوطها، ونوع من التلاعب المقصود.

كما أن سعي بعض الأنظمة للتبشير بتوجه فكري أو سياسي معين، جعلها في موقع صراع وصدام مع أنظمة أخرى.

ولا ننسى وجود أطماع للنفوذ عند بعض هذه الأنظمة، تدفعها للتدخل في شؤون بلدان أخرى، وقد يصل هذا التدخل إلى حد السعي لتغيير النظام، أو خلق قوة مناهضة له، أو دعم تيار معارض.

وفي أحيان كثيرة، يكون للقوى الأجنبية الخارجية دور أساس في دفع بعض الأنظمة للنزاع والصدام مع بعضها، لخدمة أهدافها ومخططاتها.

إن هذا الاضطراب في العلاقة بين الدول الإسلامية، حال دون حصول أي تقدم حقيقي لوحدة الأمة، وأوقع بها خسائر كبيرة، وأنتج مضاعفات خطيرة.

فإضافة إلى الخسائر المادية في الأرواح والممتلكات، وضياع الثروات، وهدر الإمكانيات، فإن هذا الاضطراب وما واكبه من انعدام الثقة، والشعور بالقلق لدى دول إسلامية تجاه أخرى، صرف الأنظار عن الأعداء الحقيقيين الطامعين في

الهيمنة والنفوذ على العالم الإسلامي، لتتجه إلى معارك مفتعلة، وعداءات زائفة، لم يقتصر الانشغال بها على الأطراف المنجرفة إلى النزاع، بل شغلت كل ساحة العالم الإسلامي وأربكت واقعه.

إن ميزانيات الدفاع، وبرامج التسلح، واهتمامات أجهزة الأمن، وخطط الإعلام، وحتى مسار التحالفات والعلاقات الخارجية، أصبحت متجهة لدى هذه الدول صوب بعضها، مما يعني أن حجماً هائلاً من الجهود الهامة والإمكانات الثمينة للعالم الإسلامي، قد صرفت ضمن مشاكل هذه النزاعات والخلافات.

وكنموذج لقلق بعض الدول الإسلامية من بعضها نذكر ما اتخذته الكويت من إجراءات لحماية نفسها من أي حماقة أخرى قد يرتكبها نظام صدام البائد في العراق، حيث أشادت سوراً حدودياً معقداً أنفقت عليه ميزانية ضخمة.

ويتألف السور الحدودي الذي جرى بناؤه خلال التسعينيات ويمتد مسافة ٢١٧ كيلومتر: من خندق بعرض خمسة أمتار، وعمق ثلاثة أمتار، يحاذيه ساتر ترابي بعلو أربعة أمتار. ثم يلي ذلك على بعد كيلومتر واحد السور الشائك

المكهرب الذي يتألف من أسوار متداخلة عدة، ثم أنشأ الكويتيون أربعة أشرطة من السواتر الترابية بين الحدود والعمق الكويتي بمعدل ساتر كل ١٥ كيلومتر.[١]

ويقول عبدالمنعم سعيد رئيس مركز الدراسات الإستراتيجية في جريدة الأهرام بمصر: «إن الصراع مع إسرائيل كلف العالم العربي في العقود الخمسة الماضية ٢٠٠ ألف من الضحايا لكن الصراعات الأهلية والحروب الداخلية في الإطار العربي والإسلامي كلفت ٢,٥ مليون ضحية. ومن حيث الكلفة المادية فإن الصراع الأول كلف العرب حوالي ٣٠٠ بليون دولار أما باقي الصراعات فبلغت تكاليفها حوالي ١,٢ تريليون دولار»[٢].

وكما هو متوقع فقد استثمرت القوى الأجنبية الطامعة هذه الحال المضطربة من العلاقات بين الدول الإسلامية، لتمرير مخططاتها، وخدمة أغراضها، وقامت بدور المشجع والمغذي لهذه النزاعات.

---

(١)الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، ٨ مارس ٢٠٠٣م ١٤٢٤/١/٥هـ.

(٢)المصدر السابق، ١٩٩٩/٢/١٣م ١٤١٩/١٠/٢٧هـ.

ورغم أننا لا نعيش الآن نزاعاً محتدماً بين دول إسلامية، إلا أن وجود أزمات صامتة مجمدة، يجعل احتمال تفّجر النزاعات أمراً وارداً في أي وقت من الأوقات. ما لم تعالج حالت الاضطراب هذه، وتصل العلاقات بين الدول الإسلامية، إلى مستوى من الاستقرار القائم على صيغة واضحة شفافة من التعاون والتكامل.

لقد نشأت للعالم الإسلامي تجمعات مؤسسية، يفترض فيها أن تقوم بهذا الدور، وتنجز هذه المهمة المصيرية، كمنظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية، ومجلس التعاون الخليجي، واتحاد دول المغرب العربي، وأمثالها، لكن هذه المؤسسات لا زالت تفتقد الجدية المطلوبة، والفاعلية المرجوة، لتحقيق ذلك الهدف الخطير.

لقد أوشكت الشعوب الإسلامية أن تفقد أملها في هذه المؤسسات، بعد مرور عقود على تأسيسها، وتوالي اجتماعات القيادات فيها، دون أن تحقق انجازاً وحدوياً يضاهي ما حققته الدول الأوربية، من خطوات في صنع وحدتها الماثلة للعيان.

إنه لابد من تفعيل هذه المؤسسات القائمة، وإنشاء مؤسسات رديفة، وخلق رأي عام ضاغط، باتجاه الاستقرار في العلاقات بين الدول الإسلامية.

الاستقرار السياسي الداخلي

من ناحية أخرى تعاني أغلب البلدان الإسلامية ضعف الاستقرار السياسي، لاضطراب العلاقة بين الحكومات وشعوبها.

حيث تطمح هذه الشعوب لدور أكبر في المشاركة السياسية، وفي ممارسة حقوقها وحرياتها، أسوة ببقية شعوب العالم التي تتمتع بالديمقراطية، فتنتخب زعماءها، ويتم فيها تداول السلطة، وتتوفر لها حرية تشكيل الأحزاب والتعبير عن الرأي.

ومن الأخبار التي تلفت النظر حول مدى ما تتمتع به الشعوب في البلدان المتقدمة من مشاركة سياسية، ما ذكرته الأنباء والتقارير عن النقاش الدائر في بعض الولايات الأمريكية عن حق التصويت للبلهاء والمجانين. يقول الخبر الذي نشرته جريدة الحياة بتاريخ ٣ نوفمبر ٢٠٠٢م:

سيقرر الناخبون في ولاية (نيومكسيكو) ما إذا كانوا سيوافقون على أن يكون للبلهاء والمجانين حق التصويت في ولايتهم. فبموجب دستور الولاية الذي وضع عام ١٩١٢م يمنع

البلهاء والمجانين من التصويت في الانتخابات. والتعديل المقترح الذي سيتم التصويت عليه بعد غد سيحذف وصف البلهاء والمجانين من الدستور.(١)

لكن غالب الأنظمة الحاكمة تتجاهل هذه التطلعات الشعبية، وتتمسك بنهج الاستئثار بالسلطة ومصادرة الحريات. وقد تلتف على مطالب شعوبها بالقيام بلعبة الانتخابات الصورية الزائفة، حيث يفوز الحاكم أو حزبه بأكثرية الأصوات، وقد عرّف الرئيس العراقي المخلوع نفسه للقوات الأمريكية التي ألقت القبض عليه في الجحر المظلم، بأنه الرئيس المنتخب لشعب العراق، كما نقلت وسائل الإعلام أيام سلطته البائدة أن نتيجة آخر انتخابات رئاسية فوزه بـ٩٨٪ من الأصوات.

من ناحية أخرى تشتد وطأة الضغوط الاقتصادية ومتطلبات الحياة، على أبناء هذه الشعوب، وخاصة جيل الشباب، الذين يعانون من قلة فرص التعليم الجامعي، وصعوبة الحصول على فرص العمل، حيث نسبة البطالة في

(١)المصدر السابق، ١٤٢٣/٨/٢٨هـ ٣ /١١/ ٢٠٠٢م.

تصاعد مستمر، فيتعرضون لحالات الإحباط واليأس من القدرة على بناء مستقبلهم وتأسيس حياة كريمة.

ويثير الإجرام الصهيوني حفيظة أبناء الأمة وغضبهم، حيث يشاهدون مسلسل العدوان اليومي على الشعب الفلسطيني، قتلاً وتنكيلاً، وجرفاً للمنازل والأشجار، وقضماً للأراضي، على مرأى من العالم والحكومات الإسلامية دون أي مانع أو رادع.

كل هذه الأمور تحدث الغليان في نفوس أبناء الأمة، وتدفعهم للصدام مع الحكومات، وقد يأخذ هذا الصدام منحى خطيراً، وشكلاً فظيعاً، بممارسة العنف والإرهاب الأعمى، الذي يصيب الأبرياء، وينشر الرعب والجزع في أوساط المجتمع، ويسيء إلى قضايا الأمة بدل أن يخدمها أو يساعد على معالجتها.

هذا الاضطراب السياسي الداخلي يشل حركة الأمة ويعوق تقدمها، ويشغل قوى الحكومة والشعب عن برامج التنمية والبناء، ويفسح المجال أمام مختلف الاحتمالات، ومنها استغلال القوى الخارجية وتدخلها تحت عنوان حماية حقوق الإنسان، أو الدفاع عن الأقليات، أو نشر الديمقراطية.

العلاقة بين الفئات والطوائف

مع أن التنوع أصيل وعريق داخل المجتمعات الإسلامية، حيث تتعدد الأعراق والقوميات والأديان والمذاهب والتيارات الفكرية والسياسية في ظل العالم الإسلامي، ومع أن الحضارة الإسلامية قدمت في سالف تاريخها أروع صفحات التسامح والتعايش مع اختلاف الانتماءات، إلاّ أن واقع المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة أخذ يضيق ذرعاً بحالة التنوع الطبيعية، واضطربت فيه العلاقة بين الفئات المختلفة الانتماء، حين تهيمن فئة قومية أو دينية أو سياسية على مقاليد الأمور، وتجور على حقوق الفئات الأخرى.

وأصبحت مجتمعاتنا تعاني من سياسة الإلغاء والإقصاء والتمييز، على أساس الدين أو المذهب أو القومية.

وتفجرت الخلافات والنزاعات القومية والمذهبية في كثير من المناطق، ومن أسوأ حالاتها فتن الخلافات المذهبية الطائفية، حيث يستخدم الدين فيها سلاحاً للتكفير والتعبئة والتحريض.

وتطورت بعض هذه النزاعات إلى احتراب أهلي أتى على كيان الوطن، وحطم هيكل الدولة، ومزّق الشعب إلى

فرق وأجزاء، كما حدث في الصومال، وفي سنين الحرب الطائفية في لبنان،وقريب منه ما حصل في أفغانستان والجزائر، والحرب بين جنوب وشمال السودان.

الإصلاح السياسي

تتأكد الآن أكثر من أي وقت مضى ضرورة مبادرة الأنظمة السياسية إلى القيام بإصلاحات شاملة، تستجيب فيها إلى تطلعات شعوبها، وتحفظ وجودها، وتحقق الاستقرار والأمن السياسي والاجتماعي، وتسد الطريق على مساعي الدول الكبرى التي يبدو أنها مصممة على التدخل في شؤون مختلف مناطق الشرق الأوسط، لفرض تغيير سياسي فيها بحجة نشر الديمقراطية، وضمن مشروع مكافحة الإرهاب، كما صرح بذلك أكثر من مسؤول في الإدارة الأمريكية.

إن أخذ زمام المبادرة من قبل الحكومات للإصلاح السياسي هو الطريق لتلافي انفجار غضب الشعوب، التي يصعب عليها الاستمرار في تحمل ضغوط الواقع المر، والصبر عليه أكثر، خاصة مع وجود المحفزات الدولية، ووضوح ضعف بنية الأنظمة وقدرات صمودها.

فالنظام إذا لم يكن محمياً بإرادة شعبه، يستند في وجوده إلى دعم القوى الخارجية، فإذا ما قررت سحب دعمها عنه فسيكون انهياره حتمياً. وبدل أن تقدم الأنظمة التنازلات للقوى الخارجية لضمان دعمها، كما رأينا في عروض صدام الشائنة على الأمريكيين قبل الحرب، من الأفضل أن تستجيب لمطالب شعوبها المشروعة.

إن الإصلاح السياسي، الذي يحقق المشاركة الشعبية، وممارسة الحريات، ويصون حقوق المواطن، هو طريق الاستقرار الداخلي، وصنع الأرضية المناسبة للعلاقة الإيجابية بين مختلف الفئات الاجتماعية، دون أن تجور فئة على أخرى، وهو الذي يدفع لاتجاه تكامل الدول الإسلامية وتعاونها على أساس إرادة شعوبها ورغبتهم الصادقة.

ثقافة التعايش

تحتاج مجتمعاتنا إلى ثورة ثقافية لجهة الوعي بحقوق الإنسان، وقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، واجتناب أساليب العنف.

إن تاريخ الاستبداد الطويل الذي عاشته الأمة، مسخ الكثير من معالم ثقافتها الإسلامية الأصيلة، التي ترتكز على

أساس الاعتراف بكرامة الإنسان بما هو إنسان وبغض النظر عن أي عنوان آخر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[١]. وترفض أي مساس بحرية الإنسان ولو كان لجهة خضوعه لربه، يقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٢]. وحتى الأنبياء والرسل لم يعطهم الله تعالى حق الفرض على الناس أو المسّ بحرية اختيارهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣]. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[٤].

وقد أنتج واقع الاستبداد الذي سيطر على الأمة ثقافة استبدادية، جيّرت لها بعض النصوص الدينية، فكانت أرضية للتكفير والتبديع، وسياسات الإقصاء والتمييز والإرهاب الفكري. وهو ما يؤدي إلى التشنجات والاضطرابات الاجتماعية.

فلا بد من حركة ثقافية واسعة تعود بالأمة إلى معالم

---

(١)سورة الإسراء آية ٧٠.
(٢)سورة البقرة آية ٢٥٦.
(٣)سورة يونس آية ٩٩.
(٤)سورة الغاشية آية ٢١ـ٢٢.

دينها الصحيح، وتربي أجيالها على الحوار وآداب الاختلاف، ومبادئ التعايش.

مؤسسات أهلية للسلم الاجتماعي

إن وجود المؤسسات الأهلية، التي تتبنى الدعوة إلى تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي بين الدول الإسلامية، وبين الحكومات والشعوب، وبين الفئات والتجمعات داخل الأمة، أمر مطلوب، ويشكل استجابة لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إننا نجد في المجتمعات المتقدمة آلاف المؤسسات الأهلية، ذات الاهتمام بقضايا العلاقات الاجتماعية، بينما نفتقد مثل ذلك في مجتمعاتنا.

لقد تأسست قبل خمسين عاماً دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، بجهد أهلي من قبل مرجعيات شيعية وسنية، وكانت تجربة رائدة، تجاوب معها العلماء المصلحون من مختلف المذاهب، وأصدرت مجلة رائعة تحت عنوان (رسالة الإسلام) وهي مجلة فصلية، صدر منها ستون عدداً، من سنة ١٣٦٨هـ إلى سنة ١٣٩٢هـ، وكانت منبراً جامعاً لعلماء ومفكري مختلف المذاهب، الذين يبشرون بثقافة الوحدة

والحوار، ويدعون إلى التقارب والتواصل، لكن هذه المؤسسة (دار التقريب) لم تستطع الصمود أمام تقلبات السياسة، ولم يتوفر لها الدعم الشعبي المطلوب، فتوقف نشاطها، وشلّت حركتها.

إن الأمة بحاجة إلى مئات المؤسسات الأهلية، التي تتبنى الدعوة إلى السلم الاجتماعي، وتبذل الجهود لإصلاح ذات البين بين مختلف فئات الأمة، من قوميات ومذاهب وتيارات.

لقد تفجرت أمام أعيننا في هذه العقود صراعات قومية عنيفة، في العالم الإسلامي، بين القوميات الإسلامية، وأبرزها: المشكلة الكردية في العراق وتركيا وإيران، وتطورت إلى نزاع دموي، قتل فيه الألوف، وشردّ مئات الألوف، واستخدمت فيه حتى الأسلحة الكيماوية، كما حدث في (حلبجة) حيث استخدم النظام البائد في العراق أسلحته الكيماوية في مارس ١٩٨٨م فأودت بحياة خمسة آلاف من المواطنين الأكراد من الرجال والنساء والأطفال!! وكان مخجلاً جداً أن يأخذ العلماء والمفكرون والواعون من الأمة موقف التفرج على أحداث هذا الصراع، أو الاكتفاء بالإدانة وبشكل فردي، دون أن تتأسس في الأمة على سعة رقعتها

مؤسسة أهلية واحدة، تدعو للتعايش بين القوميات الإسلامية، واحترام حقوق وخصوصيات أبناءها في إطار الإسلام، وضمن قيم العدل والمساواة.

وكذلك الحال بالنسبة للصراعات المذهبية الطائفية، والتي برع السياسيون في إثارتها واستغلالها، وتجاوب معهم ذوو العقليات الساذجة من الزعامات المذهبية، فصدرت فتاوى التكفير وكتب التحريض على الكراهية، بل تكونت ميلشيات طائفية للتصفيات المتبادلة، كما في باكستان، ووصل الأمر إلى الاعتداء المتبادل على المساجد وقتل المصلين، ومن أواخر الشواهد ما حدث في مسجد كويتا في باكستان، حيث حصل تفجير إرهابي أصاب أكثر من مئة من المصلين بين قتيل وجريح. وبعض مساجد بغداد في العراق.. يحصل كل هذا، مع فراغ ساحة الأمة من أي جهد أهلي مؤسسي، للوقوف أمام هذه الفتن الخطيرة.

لقد شاركت قبل حوالي شهر في مؤتمر عقد في الكويت تحت عنوان (الجماعات الإسلامية ودورها في الإصلاح السياسي في الشرق الأوسط) في الفترة من ٦ـ٨ ديسمبر ٢٠٠٣م. وكانت الجهة التي بادرت بالدعوة إلى المؤتمر هي:

(معهد كارينجي للسلام الدولي) بالتعاون مع دار صحيفة الوطن الكويتية.

وقد جاء في تعريف (معهد كارينجي) أنه مؤسسة أبحاث سياسية مرموقة في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، تأسس سنة ١٩١٠م على يد (أندرو كارينجي)، أحد أهم رواد الصناعة في تلك الحقبة، والذي جنى ثروة كبيرة في صناعة الفولاذ، ثم قرر تكريسها لتحقيق الأهداف التي شعر بأن المنظمات الخاصة لا يسعها أن تعهد بها كلياً إلى الحكومة، وأحدها قضية نشر السلام في العالم.

فأين دور علمائنا وأثريائنا في مجال تأسيس المؤسسات الأهلية التي تعمل لتوحيد صفوف الأمة وإطفاء فتن النزاع والتفرقة؟!

المشاركة الشعبية ضمانة الاستقرار

ينطلق نهج الشورى في الإسلام من مبدأين أساسيين:

المبدأ الأول: احترام الإرادة الشعبية، والاعتراف بسلطة الناس على أنفسهم وأموالهم وحقوقهم.

وقد عدّ كثير من الفقهاء قاعدة التسلط، «إن الناس مسلطون على أنفسهم وأموالهم وحقوقهم»، ضمن سلسلة القواعد الفقهية، التي يعتمد عليها الفقهاء في استنباط الأحكام الشرعية في المجالات المختلفة، وكل العلماء يأخذون بمفاد هذه القاعدة.

وبمقتضى هذا المبدأ الشرعي العقلي فإن التصرف فيما يرتبط بشؤون الناس، يجب أن يكون بإرادتهم ورضاهم. وإلا كان تعدياً على حقوقهم وإلغاءً لسيادتهم على أنفسهم وأموالهم.

المبدأ الثاني: الحرص على اكتشاف الرأي الأفضل والأصوب، وذلك يستلزم استنهاض مختلف العقول، وحشد إمكانياتها وطاقاتها، فتنبثق الآراء، وتظهر نقاط قوة وضعف

كل رأي، ثم تتلاقح وتتكامل، لتصل إلى أفضل ما يمكن من نضج وصواب.

وفي اللغة العربية نجد أن الشورى والمشاورة والمشورة: مصادر للفعل شاور. تقول: شاورته في الأمر، أي طلبت رأيه، واستخرجت ما عنده وأظهرته.

وشار العسل: إذا استخرجه.

وشار الدابة: استخرج أخلاقها.

والشارة والشُورة: الهيئة والمظهر الحسن. وفي الحديث: أنه أقبل رجل وعليه شُورة حسنة، قال ابن الأثير: هي بالضم، الجمال والحسن كأنه من الشَّور عرض الشيء وإظهاره.

وشُرتَ الدابة شوراً: عرضتها على البيع أقبلت بها وأدبرت.

وركب فرساً يشوره أي يعرضه.

ويقال شُرت الدابة إذا أجريتها لتعرف قوتها[1].

---

(١)ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب ج٣ ص٣٨٠.

فأصل المشاورة إذاً الاستخراج والإظهار والعرض.

وهذه هي الوظيفة التي تؤديها الشورى بمعناها الاصطلاحي، إنها استخراج الرأي واستظهاره واستعراضه.

وتشير الأحاديث والروايات إلى دور الشورى في إنضاج الرأي والوصول به إلى مستوى الرشد والصواب.

جاء عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم».[1]

ويقول الإمام علي عليه السلام: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[2].

وقال عليه السلام: «من شاور ذوي الألباب دلّ على الرشاد»[3].

الاستشارة على الصعيد الفردي

حينما يواجه الإنسان مشكلة، أو يريد اتخاذ قرار في قضية تهمه، فإن عليه أولاً أن يرجع إلى عقله، ويجتهد في

---

(١)المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج٧٥ ص١٠٥.
(٢)الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، حكمة رقم ١٧٣.
(٣)المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج٧٢ ص١٠٥.

التفكير الموضوعي، ثم من الأفضل له أن يستفيد من آراء الآخرين، باستشارتهم، فقد يلفتونه إلى فكرة لم ترد على ذهنه، وقد ينبّهونه إلى ثغرة لم يكن منتبهاً لها، وقد يضيفون إلى رأيه ما يكمله.

ينقل حسن بن الجهم، قال: كنا عند الإمام علي الرضا عليه السلام فذكرنا أباه الإمام موسى الكاظم عليه السلام. فقال: كان عقله لا توازى به العقول، وربما شاور الأسود من سودانه، فقيل له: تشاور مثل هذا؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه. قال فكانوا ربما أشاروا عليه بالشيء فعمل به[1].

ومهما كان مستوى عقل الإنسان وإدراكه فإن الاستشارة تضيف له كسباً ونفعاً. يقول الإمام علي عليه السلام: «لا يستغني العاقل عن المشاورة»[2].

وقد يتحمس الإنسان لرأي معين بدافع غير موضوعي، لرغبة أو رهبة، لكن من يستشيرهم يكون رأيهم خارج هذه المعادلة وأقرب إلى الموضوعية. يقول الإمام عليه السلام «إنما حُض

(١)المصدر السابق ج٧٢ ص١٠١.
(٢)الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم.

على المشاورة لأن رأي المشير صرف، ورأي المستشير مشوب بالهوى»[١].

ويقول عليه السلام: «شاور ذوي العقول تأمن من الزلل والندم»[٢].

ونلمح في هذه التوجيهات والروايات، أنها تهدف إلى تربية الإنسان المسلم على نهج الشورى، والاستفادة من الرأي الآخر. حتى يصبح ذلك سلوكاً وعادة للأفراد، وظاهرة عامة في الحياة الاجتماعية.

الشورى في الاجتماع الإسلامي

إذا كانت التوجيهات والتعاليم الدينية، تشجّع الإنسان على استطلاع آراء الآخرين، والاستفادة منها، فيما يرتبط بشؤونه الشخصية، فإن أوامر الدين صريحة وواضحة، في النهي عن التفرد بالرأي، والاستبداد بالقرار، فيما يرتبط بالشأن العام.

---

(١)المصدر السابق.
(٢)المصدر السابق.

لأن الشؤون العامة تمسّ حياة الناس ومصالحهم، فلا يصح تجاوز إرادتهم، ولا تجاهل رأيهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالمشاورة، مع أنه الأكمل عقلاً، والأفضل رأياً، وهو مسدد بالوحي من قبل الله تعالى، وكان المسلمون ينظرون إليه ليس كقائد فقط، وإنما هو نبي رسول، يخضعون له من أعماق نفوسهم، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من طاعته والتسليم له.

مع كل ذلك يأمره الله تعالى بالتزام نهج الشورى، ليرسي هذا النهج ويركزه، وليكون قدوة لأي قائد أو حاكم بعده. يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[1].

والسيرة النبوية حافلة بالموارد والمواقف التي استشار النبي ﷺ فيها أصحابه، في قضايا الحرب، وشؤون السلم، ففي غزوة بدر، شاورهم أولاً في الخروج لعير قريش ابتداءً، ثم شاورهم ثانياً عندما خرجت قريش لتدافع عن عيرها، وشاورهم في موقع النزول يوم بدر، وأخيراً شاورهم في أسرى بدر.

---

(١)سورة آل عمران آية ١٥٩.

وفي غزوة أحد، شاور أصحابه، عندما بلغه خبر خروج قريش للقتال، وكان رأيه ﷺ البقاء والتحصن في المدينة، لكنه استجاب لرأي الأغلبية بالخروج.

وفي غزوة الخندق، استشارهم في أسلوب التحصن بالمدينة، فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق، وأخذ الرسول برأيه. ثم استشار الأنصار في مصالحة الأحزاب بإعطائهم ثلث ثمار المدينة إن هم فكوا الحصار عنها ورجعوا، فلم يقبل ذلك الأنصار واستجاب الرسول ﷺ لرأيهم.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يكرر في مواقف كثيرة قولته المشهورة: «أشيروا علي».

وحتى في موضوع بسيط كصنع منبر يخطب عليه في المسجد، لم يقرر ذلك إلا بعد عرضه على الناس وأخذ رأيهم. جاء في طبقات ابن سعد: كان رسول الله ﷺ، يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائماً، فقال: إن القيام قد شقّ عليّ، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام؟ فشاور رسول الله ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه[1].

---

(١)ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ص٢٥٠.

وحقاً ما قاله أبوهريرة فيما روي عنه: «ما رأيت رجلاً أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»[١].

ومثله ما رواه عروة عن أم المؤمنين عائشة قالت: «ما رأيت أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ»[٢].

بالطبع فإن استشارة الرسول ﷺ هي في مجال تطبيق الأوامر الإلهية، وفي السياسات والتدابير الإجرائية، أما الأحكام والتشريعات فهي من قبل الله تعالى.

مجتمع الشورى

يصف القرآن الكريم مجتمع المؤمنين بانتهاج نهج الشورى في أمورهم العامة، فلا أحد يقرر بمفرده فيما يرتبط بالشأن العام، ولا مكان للديكتاتورية والاستبداد، في إدارة الأمور. يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[٣].

---

(١)ابن حبان: محمد، صحيح ابن حبان، ج١١ ص٢١٧.
(٢)البغوي: الحسين بن مسعود، تفسير البغوي (معالم التنزيل) ج٢ ص١٢٤.
(٣)سورة الشورى آية ٣٨.

والسورة التي وردت فيها هذه الآية، تحمل اسم (الشورى)، لتأكيد وتثبيت هذا المبدأ الهام في نفوس المسلمين وحياتهم.

والأمر: اسم من أسماء الأجناس العامة، مثل: شيء وحادث، وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام، أي جميع أمورهم متشاور فيها بينهم[١].

ولاحظ بعض المفسرين أنه قد وردت جملة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ اسمية مع أنها معطوفة على جملتين فعليتين ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ للدلالة على أن التشاور كان حالهم المستمرة[٢].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي لا يستبد أحد منهم برأيه، في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم، وتآلفهم، فمن كمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور، التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم

---

(١)ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج٢٥ ص١٧١.
(٢)الآلوسي البغدادي: محمود، روح المعاني ج٢٥ ص٤٦.

المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو، والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيرهما، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية[1].

لقد جاء وصف المجتمع بالتشاور، بعد وصفه بإقامة الصلاة، وقبل وصفه بأداء الزكاة، ليعطي لصفة التشاور صبغتها الدينية، وموقعيتها بين أهم الفرائض والواجبات.

ذلك يعني أن مجتمع الاستبداد، الذي لا ينتهج الشورى في أموره العامة، لا يصدق عليه عنوان الاستجابة لله، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، حيث يفتقد ركناً بارزاً من معالم الاستجابة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وكما يقول الشيخ عبدالقادر عودة: «فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة»[2].

---

(١)السعدي: عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم المنان ص١٢٧٨.

(٢)عودة: عبدالقادر، الإسلام وأوضاعنا السياسية ص١٥٥.

فالشورى «وصف ملازم للمؤمنين كالصلاة، وإذا لم يسمح للمسلم أن يتخلى عن الصلاة، فكذلك لا يسمح له بترك إقامة الشورى خاصة في الأمور المتعلقة بالمصالح العامة»[1].

الشورى تربية وسلوك

الشورى في الإسلام ليست مجرد نظام سياسي يلتزم به الحاكم في العلاقة مع الشعب، بل هي نهج تربوي، وسلوك اجتماعي، يصدر عن رؤية دينية ثقافية، فينتج نظاماً شورياً على المستوى السياسي، حيث يوجه الإسلام أبناءه إلى الحرص على استشارة الآخرين فيما يواجهونه من قضايا وأمور في شؤونهم الخاصة، ليصبح ذلك نهجاً عاماً في حياتهم، وعلى الصعيد العائلي، تدعو تعاليم الإسلام إلى معالجة قضايا الأسرة، ضمن إطار التشاور والتراضي، فمثلاً: فطام الطفل عن الرضاعة من لبن أمه قبل انتهاء مدة الرضاعة الطبيعية، وهي سنتان، ينبغي أن يتم بالتوافق بين

(١)النمر: الشيخ عبدالمنعم، صحيفة الأهرام ١٩٧٧/٦/٣م.

الوالدين، بعد تشاورهما ودراستهما للموضوع لتقويم مصلحة الطفل، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[1]. وإذا ما حصل شقاق وسوء تفاهم بين الزوجين، فلا يصح أن يترك مصير العائلة للقرارات الفردية المنفعلة، بل تتدخل عائلتا الزوجين، وتختار كل منهما ممثلاً، ويجتمع الممثلان كحكمين ليتدارسا موضوع الخلاف، ويتفقا على أسلوب المعالجة والحل. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[2].

وعلى الصعيد الاجتماعي فإن القرآن يصف مجتمع المؤمنين بأنهم يتشاورون في أمورهم العامة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وباعتبار أن الآية مكيّة النزول، فهي تتحدث عن وضع جماعة المؤمنين قبل قيام الدولة، ونشأة الكيان السياسي في المدينة.

هذه التربية على الشورى، واعتمادها كسلوك وممارسة

---

(١)سورة البقرة آية ٢٣٣.

(٢)سورة النساء آية ٣٥.

اجتماعية، وكونها تنطلق من فهم ورؤية دينية ثقافية، كل ذلك يفترض أن يؤدي إلى التزام الشورى في المجال السياسي. حيث لن ينسجم هذا المجتمع مع حالة الاستبداد والديكتاتورية، التي يجدها منافية لمبادئه الفكرية، وتربيته الأسرية، وسلوكه الاجتماعي.

من هنا تجد التناغم واضحاً بين شكل الحكم السياسي، وطبيعة الحالة الاجتماعية، وكما ورد في الأثر: «كما تكونوا يولى عليكم»[1].

فالمجتمعات الديمقراطية تمارس الديمقراطية كصبغة عامة لحياتها، في الأسرة والمدرسة والمصنع والمؤسسة الدينية والنشاط الاجتماعي، وانتهاءً بمجال السلطة والحكم، بينما تسود الفردية والديكتاتورية مجتمعات الاستبداد، على كافة الأصعدة.

ومجتمعاتنا الإسلامية الطامحة للديمقراطية ضمن ضوابط الإسلام، عليها أن تعود لاستيعاب مبدأ الشورى، ومعرفة جذوره الفكرية، وتطبيقاته الاجتماعية، ونماذج ممارسته في

---

(١)الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ١٤٩٧٢.

عهد النبوة والخلافة الراشدة، ليشكل ذلك خلفية فكرية ثقافية تأخذ موقعيتها في أذهان أبناء الجيل، الذين بهرتهم ديمقراطية الغرب، وعاشوا ضمن أجواء بعيدة عن نهج الشورى والحرية. حتى التبس عليهم الأمر بين رؤية الإسلام وواقع المسلمين.

إن الطريقة المتبعة في مجتمعاتنا لإدارة الشؤون الدينية والاجتماعية لا تزال قائمة على الرأي الفردي، والإرادة الآحادية، فلماذا لا يسعى الواعون المصلحون لتطويرها، حتى تأخذ بنهج الشورى، والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الآراء والطاقات.

فالمسجد يتولى أموره شخص واحد بينما يمكن أن يختار المصلون أو أهل منطقة المسجد لجنة تشرف على أمور المسجد وتدير شؤونه، مما يوثق صلة الناس بالمسجد، ويزيد درجة استفادتهم من برامجه.

والأوقاف عادة ما تكون بيد أفراد من الأهالي، لذلك ضاع قسم منها وأهمل قسم آخر، وحصل التلاعب في بعضها، ولو تكونت لجنة أو هيئة لإدارة أمور الأوقاف، لعاد منها على الدين والمجتمع خير كثير.

والعالم الذي يستلم الحقوق الشرعية يتصرف بمفرده في إنفاقها على الموارد التي يراها مناسبة، ولو استعان بلجنة منتخبة مختارة، لضمن الرأي الأفضل في مجال الإنفاق، كما أن ذلك يزيد من ثقة الناس وإقبالهم على أداء الحقوق الشرعية، ويضع حداً لما قد يثار من تساؤلات وتشكيكات حول مصارف تلك الحقوق.

وبين علماء الدين في المجتمع لو حصل التواصل والتشاور، في وضع خطط التوجيه والتثقيف، ومعالجة قضايا المجتمع، لكانت الحالة الدينية في مستوى متقدم، ولتجاوزت حالات الخلاف، التي يوسّعها الجاهلون والمغرضون.

وفي هذا السياق ينبغي للناس أن يتفاعلوا مع المؤسسات الأهلية ـ الرسمية، بحضور جمعياتها العمومية، والترشيح والانتخاب للتصدي لشؤون الإدارة. مثل الجمعيات الخيرية، والتي تنتخب الجمعية العمومية فيها أعضاء مجلس الإدارة، ثم ينتخب المجلس رئيسه من بين الأعضاء. وهناك نظام للمتابعة والمساءلة.

وكذلك الحال بالنسبة لغرف التجارة والصناعة في مناطق البلاد والتي يتم فيها الاقتراع لانتخاب مجلس الإدارة واختيار الرئيس.

والقرار الذي صدر أخيراً من مجلس الوزراء السعودي باعتماد نظام الانتخاب الجزئي للمجالس البلدية، يوفر فرصة أخرى لممارسة هذا النهج، ونأمل أن تتسع رقعته ليستجيب لتطلعات المواطنين في إنجاز الإصلاحات الشاملة إن شاء الله.

كما أطلقت وزارة التربية والتعليم مشروعاً رائداً قالت إنها ستبدأ في تنفيذه مطلع العام الدراسي الجديد ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤م، بتكوين مجالس الشورى للطلاب في سبعين مدرسة مختلفة المستويات التعليمية، كتجربة أولية، وسيتضاعف العدد في الفصل الدراسي الثاني ليصل إلى ١٤٠ مدرسة، بحيث يمثل كل فصل في المدرسة طالب واحد، إضافة إلى مدير معه أربعة تربويين، ويعقد المجلس حلقات نقاش وحوار مع الطلاب، بشكل شهري، ليرفع تقاريره وتوصياته إلى مدير المدرسة، والذي عليه أن يدرسها مع الهيئة الإشرافية بالمدرسة، من أجل تطبيق التوصيات ومتابعة تنفيذها.

في ظل الشورى

في ظل الشورى والديمقراطية، يشعر الناس بكرامتهم،

واحترام إرادتهم ورأيهم، فتبدع العقول، وتتطور الأفكار، وتظهر الكفاءات والمواهب، وتتوفر فرصة التعبير عن الرأي. ويتحمل المجتمع مسؤولية القرارات التي تتخذ لإسهامه في صنعها.

وعلى العكس من ذلك تماماً حالة الفردية والاستبداد، لذلك تسود المجتمعات الديمقراطية حياة الاستقرار، وينمو معدل تقدمها في مختلف المجالات، بينما تعاني المجتمعات الأخرى من الاضطرابات والمشاكل، وتراوح مكانها في قاع التخلف والانحدار.

وقد جاء في مفاد حديث مروي عن رسول الله ﷺ أن المجتمع إذا إمتلك صفات من بينها الشورى فهو جدير بالحياة على ظهر الأرض، وإلا فهو مجتمع ميت مكانه بطن الأرض. روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها...»[1]. ورواه في تحف العقول أيضاً عن النبي ﷺ.

---

(١)الترمذي: سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٦٨.

وكنموذج للفارق بين مجتمع الشورى ومجتمع الاستبداد ينقل الدكتور أحمد شوقي الفنجري هاتين القصتين:

أثناء الفتح الإسلامي لأرض فارس طلب قائد الفرس أن يلتقي بالقائد العربي قبل المعركة، ليتفاوض معه في حقن الدماء، وبعد أن عرض الفارسي مقالته قال العربي: «أمهلني حتى استشير القوم». فدهش الفارسي وقال: ألست أمير الجند؟ قال: نعم.

قال الفارسي: إننا لا نؤمر علينا من يشاور.

قال له العربي: ولهذا فنحن نهزمكم دائماً، أما نحن فلا نؤمر علينا من لا يشاور.

وهكذا انتصر المتواضع الذي يشاور على المغرور الذي يستبد برأيه. ومرت السنوات على هذا الحادث، أربعة عشر قرناً من الزمان، ثم جاءت الصهيونية تغزو قلب العالم الإسلامي، وهزمت العرب في ثلاث حروب متتالية. وتتكرر القصة مرة أخرى، فيقول وزير الدفاع الإسرائيلي موشي ديان عن حرب ١٩٦٧م في مذكراته: إنه كان يتعجب من أمر الجيوش العربية، فبعض الوحدات كانت تقاتل بشراسة ورجولة حتى آخر رمق وآخر طلقة، وبعض الوحدات في نفس الجيش كانت تستسلم دون طلقة واحدة، ولم يعرف

السر في ذلك، إلى أن استسلم أحد القادة العرب ومعه جنوده وجميع أسلحته، فأخذ يسأله: «هل أخذت رأي زملائك الضباط والجنود قبل أن تأمرهم بالاستسلام لنا؟» فقال في كبرياء: إننا لا نستشير من هم دوننا في الرتبة.

فقال له لهذا السبب فنحن نهزمكم دائماً.[1]

صيغة التطبيق

جوهر الشورى هو استطلاع رأي المجتمع، بشكل مباشر، أو عبر من ينوب عنه، في الأمور العامة المتعلقة به.

وقد مارسها المجتمع الإسلامي بداية نشأته وتكونه في عهد رسول الله ﷺ، وعهد الخلافة الراشدة، ضمن إطار الشورى العامة، حيث كان المسجد مركز تجمع المسلمين، وكان ذوي الرأي من المجتمع يحوطون بالقيادة، وعند أي قضية أو مسألة كان رسول الله ﷺ يخاطب المسلمين المجتمعين ليطلب منهم رأيهم، ويتدارس الأمر معهم، ثم يتخذ القرار المناسب.

---

(١)الفنجري: الدكتور أحمد شوقي، الحرية السياسية في الإسلام ص١٨٨.

ومع اتساع رقعة الأمة، ودخول البلدان والشعوب المختلفة إلى الإسلام، وتطور قضايا الحياة والمجتمع الإسلامي، كان الأمر بحاجة إلى أن تتطور وسائل تطبيق مبدأ الشورى.

لكن ما حدث هو تراجع الالتزام بهذا المبدأ العظيم بعد الخلافة الراشدة، في العهدين الأموي والعباسي، عدا زمن خلافة عمر بن عبد العزيز. وبذلك دخلت الأمة نفق الديكتاتورية والاستبداد، والذي أوصلها إلى حالة من الركود والتخلف، امتدت إلى عهد العثمانيين، حتى أفاقت الأمة على هول الصدمة مع تقدم الصليبيين، ونهضة أوربا الحديثة. وسيطرة الاستعمار الغربي على أغلب بلدانها وشعوبها.

وفي عصرنا الحاضر، فإن المجتمعات البشرية المتقدمة، طوّرت تجاربها السياسية والاجتماعية، على صعيد نهج الشورى والديمقراطية، وأصبحت السلطة تعتمد على ثلاث دعامات مستقلة عن بعضها هي: السلطة التشريعية، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، وهناك دستور يشكل مرجعية لهذه السلطات، وانتخابات يختار فيها الشعب ممثليه.

والمجتمع الإسلامي يمكنه الاستفادة من تجارب الشعوب والمجتمعات الأخرى، بما لا يتنافى مع قيمه ومبادئه.

لقد قرر الإسلام مبدأ الشورى لكن صيغ التطبيق،

وأساليب التنفيذ، قابلة للتغيير والتطوير، حسب اختلاف الظروف، وتطور مستوى المجتمع، وقضايا الحياة.

يقول سيد قطب: «أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان»[1].

ويقول الشيخ أبو الأعلى المودودي: «أما تبيين من يحوز ثقة المسلمين، فالظاهر في بابه أنه لا يمكن أن يختار له اليوم نفس ذلك الطريق الذي اختاره المسلمون في بدء الإسلام، خاصة وأن ما يواجهنا اليوم من العقبات والمشكلات، لم يواجه الناس حينذاك، فيجوز أن نستخدم اليوم على حسب أحوالنا وحاجاتنا كل طريق مباح يمكن به تبين من يحوز ثقة الأمة.

وأضاف: ولا شك أن طريق الانتخاب في هذا الزمان هي أيضاً من الطرق المباحة، بشرط أن لا يستعمل فيها الحيل والوسائل المرذولة»[2].

ويرى الدكتور أحمد شوقي الفنجري أنه: إذا أردنا ترجمة

---

(١)قطب: سيد، في ظلال القرآن ج٥ ص٣١٦٥.

(٢)الأنصاري: الدكتور عبد الحميد إسماعيل، الشورى وأثرها في الديمقراطية ص٢٥٢.

صادقة وأمينة لكلمة الشورى في عصرنا هذا لقلنا أنها تعني الحياة النيابية الحرة السليمة التي يطبقها الغرب في أيامنا هذه، ولا عجب في ذلك إذا وجدناهم أكثر منا تطبيقاً لمبادئ الإسلام.. فقديماً قال الشيخ محمد عبده: ذهبت إلى أوربا فوجدت الإسلام ولم أجد المسلمين، وعدت إلى الشرق فوجدت المسلمين ولم أجد الإسلام.

وعندما سئل الشيخ محمد عبده عن الشورى في عصرنا هذا قال:

إن الشورى تعني كل ما توصل إليه الإنسان الغربي في عصرنا هذا من التنظيمات الديمقراطية الحديثة، وإذا كان تحقيق الشورى لا يتم إلا بها فإن وجودها في الإسلام واجب، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.(١)

وأخيراً فإن علماء الأمة ومفكريها مطالبون بدراسة هذا المبدأ العظيم من الدين (الشورى)، ودراسة صيغ تطبيقه في العصر الحاضر، على ضوء هدي الإسلام، وتجارب المجتمعات البشرية، لتسير الأمة على طريق الخلاص من واقعها الأليم.

---

(١)الفنجري: أحمد شوقي، الحرية السياسية في الإسلام ص١٩٦.

إرادة التعاون وثقافة العمل الجمعي

القدرة على التعاون مع الآخرين، والنجاح في العمل الجمعي، هو مظهر لنضج الوعي، وسمو الخلق، وهو مفتاح التقدم والنهوض على الصعيد الفردي والاجتماعي.

فحين يتعاون الإنسان مع الآخرين يتسع أفق تفكيره، لإضافة آرائهم إلى رأيه، كما تتضاعف إنتاجيته لانضمام طاقاتهم إلى طاقته.

وفي التعاون ترويض للنفس على المرونة، وحسن التوافق، وتنمية للقدرات الإدارية والأخلاقية.

إن أي إنسان مهما عظمت كفاءته وقدرته، فإنها تبقى محدودة أمام آفاق الحياة وإمكاناتها، وأمام تحديات الواقع ومجالات التطلع والطموح.

لذلك يجد نفسه إن كان طموحاً، أمام أحد خيارين:

الانكفاء على قدرته والانطلاق منها لتحقيق الممكن من الإنجازات، أو التعاون مع الآخرين لمزيد من الإنتاجية والتقدم.

إن ضيق الأفق وضعف الهمة تدفع الكثيرين للخيار الأول، بينما ينطلق الواعون الناضجون باتجاه خيار الشراكة والتعاون.

والمجتمع المتقدم هو الذي تسود فيه حالة العمل الجمعي، في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية، بينما يفرز واقع التخلف أسلوب العمل الفردي، والعجز عن الشراكة والتعاون في شتى المجالات.

إن التفاوت القائم اليوم بين حال المجتمعات الغربية المتقدمة، وواقع مجتمعات العالم الثالث المتأخرة، مصداق بارز لهذه الحقيقة الواضحة.

هناك تتعاون الحكومات مع قوتها، ضمن أحلاف وتكتلات، كالاتحاد الأوربي الذي يضم دول أوربا، ويهدف إلى تحقيق تكاملها الاقتصادي، وتنسيق جهود التنمية الاجتماعية، وتحقيق الوحدة السياسية، وقد أصدرت عملة موحدة (يورو) ولديها برلمان منتخب من جميع دولها.

وكذلك حلف شمال الأطلسي الذي يضم ستة عشر دولة، هي دول أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا،

ويعمل كمنظمة دولية دفاعية، يستهدف حل الخلافات بين الدول الأعضاء بالطرق السلمية، واعتبار أي اعتداء على دولة في الحلف اعتداءً على الجميع، ويضع خططاً دفاعية مشتركة.

إضافة إلى مجموعة الدول الصناعية السبع (كندا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان، بريطانيا، أمريكا). وأمثال ذلك من التكتلات العالمية، التي تواصل تعاونها، وتخدم مصالح المشاركين فيها.

وفي تلك المجتمعات غالباً ما يكون النشاط الاقتصادي والصناعي في إطار شركات تتراكم فيها الخبرات وتتجمع رؤوس الأموال، وبعضها أصبح عابراً للقارات، ومتعدد الجنسيات.

وبين حين وآخر يحصل اندماج واتحاد بين شركات كبيرة عملاقة، في نفس البلد أو من بلدان مختلفة. كالاندماج الذي حصل بين شركتي (شيفرون) و (تكساسكو) النفطيتين الأمريكيتين. واندماج ثلاث شركات كبرى للفولاذ، من ألمانيا وفرنسا وأسبانيا لتصبح شركة واحدة عملاقة هي الأكبر في العالم، تنتج سنوياً مليون طن من الفولاذ. ووصفت هذه

الصفقة بأنها مذهلة لأن الشركات الثلاث هي في الأصل غريمة لبعضها.

كما أعلن أخيراً عن اندماج شركتين أمريكيتين ضخمتين في عالم الإنتاج الموسيقي هي شركة (إي. أم. آي) وشركة (تايم وورنر) وتقدر قيمة الشراكة الجديدة بعشرين مليار دولار، وحجم مبيعاتها ثمانية مليارات دولار سنوياً.

أما على الصعيد العلمي والاجتماعي في الغرب، فإن المؤسسات هي إطار الفاعلية والعمل، وقد انقرضت لغة العمل الفردي، ولم تعد مقبولة في تلك المجتمعات. وأصبح أفق التعاون عندهم عالمياً يتجاوز الدول والقارات، فقبل شهرين أعلن عن اتحاد الأحزاب الخضر في أوروبا، التي تهتم بحماية البيئة وتعارض الحروب وإنتاج الأسلحة الفتاكة فاتحد ٣٢ حزباً من ٢٩ دولة لتدخل البرلمان الأوربي كقوة موحدة.

بالتأكيد فإن هذه المنهجية السائدة هناك، واعتماد لغة العمل الجمعي والتعاون المشترك، هي من أبرز أسباب تقدم تلك المجتمعات واستقرار أوضاعها السياسية وعلاقاتها الاجتماعية.

العالم العربي وحال التعاون

بينما نرى على الضفة الأخرى، في مجتمعات العالم الثالث التي ننتمي إليها، أن هذه المنهجية لا تزال محدودة التداول والاستخدام، فالفردية هي اللغة الشائعة في مختلف الميادين، ومشاريع التعاون والشراكة غالباً ما تتعثر وينفرط عقدها.

لقد مضى على تأسيس جامعة الدول العربية حوالي ستين عاماً، ومع ضخامة التحديات التي يواجهها العالم العربي، خاصة في هذه الأعوام الأخيرة، مما يجعل التعاون بين الدول العربية أشد إلحاحاً وأكثر ضرورة، إلا أن ما يحصل في إطار الجامعة العربية، يدل بوضوح على ضعف إرادة التعاون، وغياب روح العمل الجمعي، حيث لا تزال العلاقات مضطربة بين أكثر من دولة عربية، ولم تنجز الجامعة مشاريع مشتركة هامة، تلامس مصلحة المواطن العربي، وجاء انفراط عقد الاجتماع الأخير للقمة العربية في تونس، وقرار تأجيله ليكشف بجلاء تعثر منهجية التعاون والعمل الجمعي على مستوى الدول العربية.

وفي مظهر آخر لعمق الخلل في العلاقات العربية، وعجزها عن تحقيق أدنى مستويات التعاون، جاء تعثر الإعداد للمشاركة في معرض الكتاب الدولي في فرانكفورت، في دورته السادسة والخمسين بتاريخ ٦ـ١٠ أكتوبر من هذا العام ٢٠٠٤م، هذا المعرض الذي يعتبر أضخم مهرجان ثقافي عالمي، وتقرر من قبل ثلاث سنوات أن يكون العالم العربي هو ضيف الشرف فيه هذا العام، حيث يتمتع ضيف الشرف بجناح يخصص له، وتغطى معارضه وأنشطته بإعلام دولي مكثف، كما تتاح له فرصة إقامة مختلف الأنشطة الثقافية لمدة عام كامل على مستوى ألمانيا.

ومع ما يتعرض له العالم العربي من حملات إعلامية ضارية، لتشويه سمعته، والتقليل من شأن حضارته وتاريخه، واتهام ثقافته، في أعقاب ١١ سبتمبر وما تلاها من أحداث منسوبة لجهات إسلامية، كل ذلك يفترض أن يوجد أشد الحرص لاستثمار هذه الفرصة العظيمة، في عرض منجزات الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، والدفاع عن دورها التاريخي، لكن واقع العلاقات العربية قد يضيع مثل هذه الفرصة، أو يضعف إمكانية الاستفادة منها بالمستوى المطلوب، وقد طالب أمين عام جامعة الدول العربية بإدراج

المشاركة في معرض فرانكفورت على جدول القمة العربية التي تأجلت في تونس.

إن المساحة المخصصة في المعرض للعالم العربي تسعة آلاف متر، ولم تسدد إلا بعض الدول العربية مبلغ سبعمائة ألف دولار من الرسوم التي تبلغ ثلاثة ملايين دولار!! تتحملها اثنتان وعشرون دولة عربية.

وكان من المقرر ترجمة ١٠٠ كتاب عربي إلى اللغة الألمانية، لم ينجز منها إلا عشرون كتاباً!!

ومن قائمة ٣٥٠ ناشر عربي يفترض مشاركتهم في المعرض، لم يتقدم إلا ١٥٠ ناشراً فقط!!

وحسب البرنامج المقترح سيشارك حوالي ٧٥٠ من المؤلفين والمفكرين والأدباء والفنانين والإعلاميين العرب، ليتعرف عليهم جمهور المعرض، وليشاركوا في فعالياته الثقافية، لكن الأموال اللازمة لنفقات سفرهم لم تؤمن بعد!!

لقد كتب الروائي السوري خليل صويلح مقالة حذر فيها من تحول مناسبة معرض فرانكفورت إلى إدانة للثقافة العربية بدل أن تكون للاحتفال بها!!

بالتأكيد لو كان ضيف الشرف دولة عربية واحدة، لقامت بما يلزم لذلك بمفردها، لكن شمول المشاركة لكل الدول العربية، أوجب هذا التعثر، وكما جاء في مقالة الكاتب اللبناني في صحيفة المستقبل حسن داوود: «ما يمكن ملاحظته في أصل العزوف العربي هو انعدام الحماسة لذوبان أي من هذه الدول في ظهور عربي عام، يبدو ذلك النوع من الاشتراك، من وجهة نظر هذه الدول، لا يأتي بعائد معنوي يمكن استثماره أو الاعتزاز به».

ولا تقف المشكلة عند حدود ضعف التعاون بين الدول العربية، بل إن هناك صراعاً حول المشاركة في المعرض بين اتحاد الناشرين العرب والمراجع الرسمية العربية، ثم بين اتحاد الناشرين العرب والجامعة العربية، وبين الناشرين من بعض الدول العربية واتحاد الناشرين المصريين.

التعاون على الصعيد الأهلي

إن واقع التعاون داخل الشعوب والمجتمعات الإسلامية ليس أحسن حالاً منه بين الحكومات، فحالة التنافر والتباعد هي السائدة بين مختلف القوى والجهات، من مذاهب

وطوائف وأحزاب ومؤسسات، وحتى ضمن المذهب الواحد والمدرسة الواحدة، هناك عجز عن التعاون وتنسيق المواقف والجهود.

في هذا السياق نشرت الصحف هذه الأيام خبراً من العراق يحمل الكثير من الدلالات، حيث دشن ممثل (الكنيسة الانغليكانية) البريطاني: اندرو وايت (المركز العراقي للحوار والمصالحة والسلام)، وباشر دوره للقيام بالمصالحة بين القيادات الدينية العراقية السنية والشيعية، ونجح في عقد أول لقاء من نوعه بين السيد حسين الصدر كبير علماء الشيعة في بغداد وبين الشيخ عبدالقادر العاني من كبار علماء السنة هناك.[1]

هكذا يحتاج عقد لقاء بين عالمين مسلمين عربيين عراقيين في مدينة واحدة، يعيش بلدهما أصعب الظروف حيث الاحتلال الأجنبي، وخطر التمزق الطائفي، يحتاج ذلك إلى وساطة من قبل ممثل الكنيسة البريطانية!!

---

(١)الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، العدد ١٤٩٦٢، ١٥ مارس ٢٠٠٤م.

إن هذه المفارقة المذهلة بين عجزنا عن التعاون فيما بيننا على مختلف المستويات، ونجاح الآخرين في اعتماد التعاون والمشاركة منهجية عامة لحياتهم وعلاقاتهم، تجعلنا أمام تحد كبير، وسؤال خطير، عن الأسباب الكامنة وراء هذه المفارقة؟

إننا ننتمي إلى دين يقرر الوحدة بين أتباعه كأصل لازم، إلى جانب أصل عبادة الله تعالى وتقواه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[2].

ويوجه القرآن الكريم أمراً صريحاً بوجوب التعاون والمشاركة في أعمال الخير، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[3].

إن نصوصاً دينية أخرى تأمر الإنسان بالقيام بأعمال البر والتقوى، لكن هذه الآية تأمر بالمشاركة واعتماد منهجية العمل الجمعي لإنجاز أعمال البر والتقوى.

---

(١)سورة الأنبياء آية ٩٢.
(٢)سورة المؤمنون آية ٥٢.
(٣)سورة المائدة آية ٢.

ومع أن الصلاة فرض عين على كل مكلف مسلم، وتصح منه لو صلاها منفرداً، إلا أن الإسلام حث على أدائها جماعة، بل ذهب الحنابلة إلى وجوب الجماعة عيناً على كل مكلف للصلوات الخمس، وإن لم تكن شرطاً لصحة الصلاة، وقال الشافعية في الأصح المنصوص: الجماعة فرض كفاية، وهو رأي المذهب الأباضي أيضاً[١]، أما بقية المذاهب (المالكي، الحنفي، الجعفري، الزيدي) فترى أن الجماعة سنة مؤكدة.

وفريضة الحج أوجب الله تعالى أداءها بشكل جمعي بتحديد زمان ومكان ونسك واحد لجميع الحجيج.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يد الله مع الجماعة».[٢]

هذه التعاليم الدينية تهدف بعث روح العمل الجمعي، وتربية الأمة على منهجية التعاون والمشاركة. فلماذا لا تترك أثرها المطلوب في واقع حياة المسلمين؟

---

(١)اطفيش: محمد بن يوسف، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، ج٢ ص٢٠٦.

(٢)المتقي الهندي: كنز العمال، حديث رقم ٢٠٢٤١.

إن الوحدة والتعاون بين قوى الأمة شعار يرفعه الجميع، وقضية لا يعلن أحد معارضتها، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك وتجسيده على أرض الواقع؟

إشكاليات وعوائق التعاون

يبدو أن هناك عوائق وإشكاليات أمام إرادة التعاون في مجتمعاتنا، تحتاج إلى تسليط الأضواء عليها، والمعالجة الصريحة، وهي في غالبها ذات بعد نفسي سلوكي، ومن أبرزها:

عدم الشفافية والمكاشفة عند بحث العلاقات، ومشاريع التعاون، ففي المجتمعات الأخرى يتكلم كل طرف أمام الآخر عن مصالحه بجرأة ووضوح، ويحدد ما يريد وما يرفض، ويعرب عن هواجسه ومخاوفه بدون مواربة، أما في مجتمعاتنا فإن أسلوب المجاملة والمداراة هو المتداول، حيث تتكلم الأطراف حينما تلتقي بلغة المبادئ، وتزايد على بعضها في إظهار التسامي على المصالح، وإبراز الثقة المتبادلة، وإعلان الموافقة على ما يطرح، مع إضمار ما يخالف كل ذلك!!

وقد شاع التعبير عن مثل هذه الحالة بأنها معالجة المشاكل على طريقة (تبويس اللحى).

وأذكر مرة أني شاركت في لقاءٍ جمع بين جهتين دينيتين متنازعتين لإصلاح ذات بينهما، وفوجئت بما ساد اللقاء من أجواء إيجابية، حيث أكد كلا الطرفين بأن ليس هناك ما يستحق النزاع، وأن رضا الله تعالى هو الهدف، وبعد اللقاء أبدى كل منهما شكوكه في كلام الآخر، وإصراره على التمسك بمواقفه؟!

إننا بحاجة إلى تجاوز هذه الازدواجية، واستخدام لغة المكاشفة والمصارحة، فالاهتمام بالمصالح والدفاع عنها ليس عيباً، وعرض المطالب والرغبات أمر مشروع، والإعراب عن الهواجس والمخاوف ليس إساءة، إن الوضوح والشفافية بين الأطراف هو الخطوة الأولى في طريق التفاهم والتعاون.

العلاقات والتأثير العاطفي

ومن عوائق التقارب والتعاون محورية العواطف والأحاسيس في نظرة الأطراف إلى بعضها، لقد تجاوز الأوربيون آثار حربين عالميتين حصلت فيما بينهم خلال نصف قرن من الزمن، الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨م)، والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ١٩٤٥م)، وقد سببت الحرب العالمية الأولى دماراً كبيراً، إذ مات نحو ١٠

ملايين جندي نتيجة للحرب، وجرح نحو ٢١ مليون رجل، ولا أحد يعرف كم عدد المدنيين الذين ماتوا من المرض والجوع والأسباب الأخرى المتعلقة بالحرب، ويعتقد بعض المؤرخين أن عدد المدنيين الذين ماتوا كان يساوي عدد الموتى من الجنود ١٠ ملايين. أما الخسائر الاقتصادية فتقدر بنحو ٣٣٧ بليون دولار أمريكي، عدا عن الآثار السياسية والاجتماعية.

أما الحرب العالمية الثانية فيزيد عدد ضحاياها من الجنود على ٣٠ مليوناً وقد يصل العدد من الضحايا المدنيين إلى ضعف ذلك..[١]

لكنهم تجاوزوا كل تلك الآثار، وصاروا يتعاونون كحكومات وشعوب وجماعات ومؤسسات، يتحدثون عن تلك الحروب كتاريخ مضى، ويخلدون أحداثها ضمن المتاحف والمعارض، دون أن يوظفوها في تعبئة الانفعالات، وإثارة الكراهية والبغضاء.

لكننا لا زلنا نعيش آثار معارك التاريخ الغابر لأمتنا، ونحمّل بعضنا بعضاً نتائج ما حصل بين الأسلاف، وبدل أن

---

(١)الموسوعة العربية العالمية، ج٩ ص ٢٠٩، ٢٤٢.

نأخذ من التاريخ دروسه، ونستفيد من عبره، أصبحنا أسارى لانفعالات وقائعه وأحداثه، لتذكي بيننا مختلف ألوان الصراعات المذهبية والقومية والسياسية والإقليمية والقبلية.

وحتى على المستوى العائلي يتوارث الأبناء صراعات آبائهم وأجدادهم لتبقى الأرحام مقطوعة، والعلاقات متشنجة.

إننا بحاجة إلى إثارة عقولنا وترويض عواطفنا وانفعالاتنا، لندرك أن مصلحتنا في التعاون والتقارب.

ولعل من أسوأ عوائق الوحدة والتعاون في ساحة الأمة، ما يسميه البعض التزاماً شرعياً مبدئياً يمنعه من الاقتراب من الآخر المخالف له في الرأي، والمشاركة معه في أي مشروع، لأنه يعتبر الآخر مبتدعاً ضالاً، يأمر الشرع بهجره ومقاطعته، بل ومحاربته، وبغض النظر عن خطأ مثل هذه الأحكام غالباً، فإن الشرع يفسح المجال للتحالف حتى مع غير المسلمين حينما تكون هناك مصلحة مشتركة، كما نصت صحيفة المدينة التي وضعها رسول الله ﷺ بداية الهجرة على التحالف مع قبائل يهود المدينة، وكان هناك عقد معاهدة بينه ﷺ وبين قبيلة خزاعة من المشركين، إضافة إلى عدد من المعاهدات والأحلاف الأخرى المذكورة في السيرة النبوية.

إن التحديات الخطيرة التي تواجه الأمة تفرض نوعاً من الاستقرار في علاقاتها الداخلية، وتوجب مستوى من التعاون بين أطرافها وقواها المتنوعة فكرياً وسياسياً، وتجاهل ذلك نوع من الجهل والغباء، والتبريرات الشرعية المدعاة هي خطأ في فهم مراد الشرع، أو التباس في موارد التشخيص والانطباق.

مواقع الاتفاق ونقاط الاختلاف

وهناك عائق آخر يتمثل في التسمّر أمام نقاط الخلاف، وسيطرتها على الأذهان والنفوس، مما يمنع الاتجاه إلى مواقع الاتفاق، وموارد الاشتراك، فليس شرطاً أن تتفق الأطراف المختلفة على كل شيء لتبدأ التعاون، بل يمكن الانطلاق من نقطة اتفاق واحدة لخدمة مصلحة مشتركة.

وهذا ما عرضه القرآن على اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً﴾[1].

ومن هذا المنطلق كانت معاهدات رسول الله ﷺ مع غير المسلمين من يهود ونصارى ومشركين.

---

(١)سورة آل عمران آية ٦٤.

إن وجود مشروع مشترك ومصلحة متبادلة في جانب ما بين الأطراف المختلفة، يجعلها أقدر على معالجة سائر الجوانب، أو تجميد الآثار السلبية للاختلاف فيها.

ومن المتعارف الآن في العلاقات السياسية أن تذكر البيانات المشتركة مواقع الاتفاق إلى جنب نقاط الاختلاف، كما أن أنظمة المؤسسات الجمعية الدولية والإقليمية، تفسح المجال لفرز الأصوات، الموافق منها والمخالف والممتنع عن التصويت، حول أي مشروع يطرح. فإذا ما اختلفنا حول مسألة أو قضية لا يعني ذلك إنهاء العلاقة، وإلغاء التعاون والانسحاب من الشراكة.

الخوف من التعاون

يخاف البعض من التعاون مع الآخرين لضعف ثقته بذاته، وأنه حينما يتعاون معهم قد يقع تحت تأثيرهم، أو يُحتوى وضعه لصالح نفوذهم، وقد تخشى بعض الزعامات وخاصة الدينية والفكرية من أن التعاون يجعل ساحة تيارها مفتوحة أمام تأثير الآخرين، لكن هذه المخاوف وأمثالها تشكل تكريساً لحالة الضعف وتستراً عليها، والجهة الواعية هي التي تقبل التحدي وتستجيب له، لترتفع إلى مستواه،

فتتعاطى مع الآخرين بثقة، وتدخل حلبة التنافس الإيجابي باطمئنان، وبذلك تكتشف نقاط ضعفها فتعالجها، وتدرك مواقع قوتها فتنميها، فالتعاون بثقة سبيل لاكتساب القوة.

وفي بعض الأحيان تتضخم الأنا والذاتية عند البعض، فلا يرون الآخرين أنداداً لهم يستحقون التعاون، فهم الحق وغيرهم باطل، وهم الشرعية وسواهم أدعياء، وهم الكبار ومن عداهم أقزام، وقد يحيط البعض نفسه بهالة من العظمة والقداسة أمام الأتباع، فيخاف من التعاون أن يظهره على واقعه.. وهذه الأوهام تمثل حالة مرضية، لأن التفكير السليم يدفع القوي إلى تفعيل وجوده بالانفتاح على الآخرين وليس بالانكفاء دونهم.

إن الدول الكبرى في العالم تشارك في عضوية المؤسسات الدولية إلى جانب أصغر الدول، وتدخل معها في اتفاقات وتحالفات.

تنمية روح التعاون

كيف ننمي روح التعاون في مجتمعاتنا؟ وكيف نتجاوز هذه الحال السلبية المتخلفة؟

إننا بحاجة إلى ثقافة تدعو إلى التعاون، وتبشّر به في جميع الأوساط والميادين، ويجب أن نفضح العوائق الفكرية والنفسية التي تعرقل مسيرة التعاون، وتوقف حركتها، وخاصة ما ينسب منها إلى الدين، لأنها تعني تحميل الدين مسؤولية التخلف، وأنه العائق أمام إرادة التعاون.

وأعتقد أنه يوجد في جميع الأطراف والاتجاهات الدينية والفكرية والسياسية عقلاء يدركون سوء واقع العلاقات الداخلية في الأمة، لكن أصواتهم تبدو خافتة أمام أصوات المتطرفين في جماعاتهم، أولئك الذين يجدون دورهم ومصلحتهم في الحفاظ على هذا الواقع السيئ، ويستخدمون سلاح إثارة العواطف، وإلهاب المشاعر الدينية أو السياسية في أوساط جماهيرهم، لوصف أي مشروع تعاون وتقارب مع الآخرين بأنه تضييع للقضية، أو تمييع للعقيدة، أو تنازل عن الثوابت والمبادئ!!

على العقلاء من كل طرف أن يصمدوا أمام هؤلاء المرجفين المتشددين، وأن يراهنوا على إثارة العقول، وبث الوعي السليم، وتطوّر الجيل المعاصر، وانفتاحه على العالم الحديث.

كفى مراعاة لهؤلاء المتشددين على حساب مصلحة الأمة، وكفى مجاملة للشارع على حساب الشرع والعقل.

إنني أعرف عن عدد من القيادات السياسية والدينية والاجتماعية عدم رضاها عن كثير من الأوضاع السائدة، لكنها تخشى صولة المتطرفين، وهيجان العامة، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾[1].

نماذج ومبادرات

لكي تسود منهجية التعاون في مجتمعاتنا ينبغي أن تنطلق المبادرات التعاونية على مختلف الأصعدة، لتتراكم التجارب، وتتوفر النماذج المشجعة، إن على كل من يؤلمه واقع العلاقات المتردية داخل الأمة، ويتطلع إلى سيادة روح التعاون والعمل الجمعي، أن يبادر بشخصه ومن موقعه، وبما يمثل من دور، لمدِّ يد التعاون والانفتاح على الآخرين، لتحويل التطلع إلى واقع، والفكرة إلى عمل.

---

(١)سورة الأحزاب آية ٣٩.

إن على المرجع الديني الذي يدعو إلى التعاون أن يخطو باتجاه التعاون مع سائر المرجعيات الدينية.

والمفكر الذي ينظّر للوحدة عليه أن يطرح مشروع عمل يشترك فيه مع المفكرين الآخرين.

والسياسي الذي يندد بحالة التشرذم والخلافات، عليه أن يقدم نفسه نموذجاً للتعاون مع الآخرين.

ورجل الأعمال الذي تبهره ضخامة الشركات الأجنبية عليه أن يسعى لإقناع أمثاله باندماج مؤسساتهم الاقتصادية.

وهكذا العاملون في المجال الاجتماعي والعلمي وسائر المجالات.

خطاب التطرف

وأثره على الاستقرار والأمن

دفعت الأمة ثمناً باهظاً لخطاب التطرف والتشدد على الصعيدين الداخلي والخارجي.

فقد كرّس هذا الخطاب حالة التشرذم والنزاع داخل الأمة، حين أعطى أولوية مطلقة، وأهمية قصوى، للمسائل الخلافية الجزئية، في أمور العقيدة والشريعة، وهي كانت محلّ خلاف قديم، ليجعلها حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، متجاوزاً مساحات الوفاق الواسعة بين المسلمين، في أصول الإيمان، وأركان الإسلام وفرائضه.

مما فتح باب التكفير والتبديع على مصراعيه، وأصبح تكفير الأشخاص والطوائف والجماعات والمجتمعات مسألة سهلة، يفتي بها حتى من له أدنى حظٍ من الاطلاع على العلوم الشرعية.

وأنتج هذا الخطاب ثقافة تحريضية تعبوية، تنشر الكراهية والعداء بين المسلمين، بمبرر الخلاف المذهبي، أو حتى الخلاف الفكري والفقهي ضمن المذهب الواحد.

وتربى على هذا الخطاب جيل صار يتقرب إلى الله تعالى بالبراءة من أخوة له في الدين، يجمعه وإياهم الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والالتزام بأركان الإسلام، بل وصل الأمر إلى استباحة الحقوق، وانتهاك الحرمات، وممارسة الإيذاء المادي والمعنوي، وسفك الدماء، والاعتداء على المساجد والأماكن الدينية بالتفجيرات، وإطلاق النار على المصلين، كما حدث مكرراً في باكستان واليمن وربما في بلاد أخرى.

اضطراب الأمن

وعلى الصعيد السياسي قاد هذا التطرف إلى تفجير الأوضاع الأمنية، في كثير من البلدان الإسلامية، وأصبح السلاح والعنف هو لغة التخاطب مع الحكومات والسلطات، عبر الاغتيالات والتفجيرات التي عادة ما تطال الأبرياء المدنيين من مواطنين ومقيمين، وتؤدي إلى سلب الأمن والاستقرار، وإلى تشديد الإجراءات الأمنية على حساب الحريات العامة.

ضياع الطاقات

لقد استقطب هذا الخطاب شريحة من أبناء الأمة

اندفعت إليه بإخلاصها وحرصها على خدمة دينها، هذا الإخلاص والحرص، كان يحتاج إلى التوظيف الصحيح، والتوجيه المناسب، ليؤدي دوراً إيجابياً في تغيير واقع الأمة إلى الأفضل، لكن مسار التطرف أضاع هذه الطاقات، وبددها في الاتجاه الخطأ.

التنفير من الدين

وشريحة أخرى من أبناء الأمة بهرهم تقدم الحضارة الغربية، ولم تتوفر على معرفة كافية بالدين، فتأثرت بالاتجاهات الفكرية الوافدة، وكانت بحاجة إلى حوار موضوعي هادئ، وثقافة إسلامية واعية، لتستعيد ثقتها بدينها، ولتحافظ على هويتها، وتعتز بالانتماء إلى قيمها الأصيلة، لكن خطاب التطرف زادها عن الدين بعداً، وكرّس لديها حالة النفور من الإسلام، بلغته الفظّة القاسية، وأسلوبه القمعي الشديد، واهتماماته الجزئية القشرية، البعيدة عن قضايا العصر وتطورات الحياة.

لقد زج مسار التطرف الأمة في معارك جانبية شرسة، أضافت للأمة أتعاباً جديدة، وشغلتها عن التحديات المصيرية

التي تواجهها، وخلطت الأوراق، وزيفّت الاهتمامات عند قطاع واسع من جماهير الأمة ونخبها.

فخ صدام الحضارات

كل ذلك كان بعض آثار التطرف على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، فقد منح هذا التطرف المنتسب إلى الإسلام، فرصة عظيمة، لدوائر التخطيط للهيمنة العالمية في مؤسسات القرار والحكم الأمريكي، لتجد العدو الذي تبحث عنه بعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط المعسكر الشرقي، حتى يكون عنواناً للتعبئة والتحشيد، واستمرارية روح التحدي والمواجهة، ومبرراً لممارسة دور الزعامة والهيمنة على الصعيد الدولي.

وما مقولة (صدام الحضارات) إلا تنظيراً تمهيدياً لهذه المعركة الجديدة التي كانوا يخططون لها، وأعانهم مسار التطرف الإسلامي على اختيار الضحية التي يفتشون عنها.

وهكذا وجدت الأمة نفسها في أتون حرب ضروس ومعركة ضارية، لم تتهيأ لها، وغير مستعدة لخوضها، وهي معركة شاملة مفتوحة، عنوانها مكافحة الإرهاب، جعلت كل

بلاد المسلمين أرضاً مكشوفة للعمليات العسكرية والتدخل الأجنبي، بدءاً من أفغانستان ومروراً بالعراق، وسيف التهديد مسلط على باقي الدول والبلدان...

إلى جانب العمليات العسكرية، هناك معركة فكرية ثقافية تستهدف هوية الأمة، ومبادئها الدينية، وانتمائها الحضاري، أطلق عليها أخيراً وزير الدفاع الأمريكي (دونالد رامسفيلد) عنوان حرب الأفكار، ففي مذكرة مسربة منسوبة إليه وتصريحات علنية، أكد رامسفيلد: «أهمية هزيمة الإرهاب ليس فقط بالقوة العسكرية ولكن أيضاً في حرب الأفكار مشيراً إلى خطر المدارس الدينية».

وكان رامسفيلد طرح في مقابلة مع (نيويورك تايمز) فكرة إقامة «وكالة معلومات في القرن الواحد والعشرين في الحكومة للمساعدة في شنّ معركة العقول».[1]

إن جميع المدارس الدينية الإسلامية ومناهج التعليم، والمؤسسات والمراكز والمساجد، وخطب الجمعة، كلها أصبحت في دائرة الاتهام والاستهداف، والشخصيات

---

(١)الحياة: جريدة يومية تصدر عن شركة الحياة الدولية، لندن ٢٠٠٣/١٠/٢٥م.

الإسلامية الفاعلة أدرجت أسماء كثير منها في القوائم السوداء، وحدثت مداهمات للعديد من المراكز الإسلامية في أمريكا وأوربا، واعتقل عدد من العلماء والمفكرين المسلمين هناك كان آخرهم الدكتور عبدالرحمن العمودي المقيم في أمريكا والمعروف باعتداله وانفتاحه.

ولم تسلم حتى مؤسسات الإغاثة والجمعيات الخيرية لمساعدة الفقراء والمحتاجين، من آثار هذه الحرب الشاملة، بل نالها نصيب وافر من التهم والإغلاق ومصادرة الأموال وتجميد الحسابات.

صحيح أن هناك استهدافاً في الأساس للأمة ودينها، لكن الصحيح أيضاً أن المتطرفين وفروا المبررات والذرائع، وأتاحوا الفرص، ومكنوا للأعداء، وفتحوا الثغرات ومنافذ الهجوم لهم.

الاستثمار الصهيوني

وكانت إسرائيل بالمرصاد، وهي التي أربكتها انتفاضة الشعب الفلسطيني المتواصلة، وضربات حزب الله الموجعة في جنوب لبنان، التي اضطرتها للهزيمة والانسحاب، وأصبح وجودها مهدداً بخطر شديد، مع تنامي الصحوة الإسلامية،

وإصرار الشعب الفلسطيني على نيل كامل حقوقه، حتى جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، لتقدم لها خشبة الإنقاذ والخلاص، ولتمنحها أثمن الفرص، لتجاوز المأزق الصعب، فركبت موج محاربة الإرهاب، واستثمرت توجهات الإدارة الأمريكية اليمينية المتطرفة، واستغلت الرأي العام السياسي والشعبي الجريح في أمريكا من أحداث ١١ سبتمبر، لتوظيف كل ذلك في حملة إبادة شعواء ضد الشعب الفلسطيني، حيث أعادت احتلال أغلب المناطق الفلسطينية، بشكل متكرر واغتالت العشرات من قياداته، وقامت بأبشع المجازر الدموية، والتي أصبحت مسلسلاً يومياً، على مرأى ومسمع من العالم كله، دون أي اعتراض فعلي، أو ممانعة حقيقية.

تعويق حركة الإسلام

إن وضعاً عالمياً أصبح يحيط بالإسلام والأمة، لا سابق له في التاريخ، حيث تتسابق مختلف الدول في اتخاذ الإجراءات التي تجعل من كل عربي ومسلم، محلاً للريبة والاتهام، حتى تثبت براءته.

وصارت الاتهامات تكال للإسلام والمسلمين عبر وسائل

الإعلام، وعلى ألسنة السياسيين والمثقفين، لتنال من سمعة الإسلام ونبي الإسلام، والقرآن الكريم، وتاريخ الأمة. وهي من الكثرة بحيث يصعب متابعتها وحصرها.

وقد تميز الإسلام في السنوات الماضية، بأنه أكثر الأديان انتشاراً، حيث يقبل على اعتناقه أعداد كبيرة من مختلف الأمم، بما في ذلك المجتمعات الغربية، واستقطب نوعيات من المفكرين والمثقفين الغربيين الذين شدهم إليه عمق معارفه الفلسفية، وإنسانية تشريعاته.

كما أصبحت الجاليات الإسلامية في الغرب أكثر فاعلية وتفاعلاً مع تلك المجتمعات، مما يهيئها لأخذ موقعية أكبر، ونفوذ أوسع، إضافة إلى تجدد حيوية الالتزام بالإسلام داخل المجتمعات الإسلامية.

لكن هذا الوضع المستجد والحملة العالمية على الإسلام والمسلمين، والتي اتخذت ممارسات المتطرفين ذريعة لها، عرّضت حركة تقدم الإسلام لانتكاسة مفجعة، يحتاج تجاوزها إلى وقت طويل، وجهود كبيرة.

بين الرفق والعنف

نلحظ في تعاليم الإسلام الأخلاقية تركيزاً هاماً على

صفة (الرفق)، وتحذيراً من الصفة المقابلة لها وهي القسوة والعنف.

وقد عرّف اللغويون (الرفق) بأن أصل مادته يدل على موافقة ومقاربة بلا عنف. فالرفق خلاف العنف. ورَفِق الرجل: لَطُف.

ويقول الليث: الرفق: لين الجانب، ولطافة الفعل.

قال الخليل: العنف ضد الرفق، يقال اعتنفت الشيء إذا كَرِهتَه ووجدت له عنفاً عليك ومشقة.

والعُنف الشدة والمشقة.

إن خطاب التطرف، وعنف التعامل، ينفر الناس من الاستجابة لدين الله تعالى، ولو كان الداعي أفضل الرسل والأنبياء محمد ﷺ، بينما اللين والرفق يجتذب القلوب والنفوس. يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

وحتى في مقابل أعتى الطغاة فرعون يأمر الله تعالى نبييه

(١)سورة آل عمران آية ١٥٩.

موسى وهارون عليهما السلام بأن يخاطباه برفق دون شدة يقول تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1].

ومن صفات المؤمنين أنهم لا يستجيبون لاستفزازات الجاهلين فلا يواجهون خطابهم بما يشابهه بل يترفعون عن ذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[2].

وجاء مرة بعض من اليهود وأساءوا التحية لرسول الله ﷺ حيث قالوا: السام عليكم أي: الموت. فغضبت أم المؤمنين عائشة وردت قائلة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. لكن رسول الله ﷺ رفض هذه الشدة في التخاطب حتى مع اليهود المسيئين وقال لعائشة: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعُنف والفُحش».[3]

---

(١)سورة طه آية ٤٣ـ٤٤.

(٢)سورة الفرقان آية ٦٣.

(٣)البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٦٠٣٠.

وجاء في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه».(١)

وبهذا يكون خطاب التطرف ونهجه موصوفاً بالشين والقبح من قبل رسول الله ﷺ.

وفي حديث آخر يعتبر رسول الله ﷺ العنف والتطرف حرماناً من الخير كما أورد الترمذي عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير».(٢)

وفي حديث رائع عن رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».(٣)

وعنه ﷺ: «إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق في الأمر كله».(٤)

إن «الرفق مفتاح النجاح» كما يقول الإمام علي عليه السلام.(٥)

---

(١) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٩٤.

(٢)الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٣٦٨.

(٣)القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٩٣.

(٤)الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٣٦٦.

(٥) الآمدي التميمي: عبدالواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، ج١

وفي كلمة أخرى يقول الإمام علي عليه السلام: «لكل دين خلق وخلق الإيمان الرفق».[١]

هكذا تركز التعاليم الإسلامية على أخلاقية الرفق واللين، وتحذر من أضرار التطرف والعنف، وقد يتساءل البعض عن موقعية نصوص أخرى يظهر منها الأمر بالشدة والغلظة كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٢]. وقوله تعالى :﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[٣].

لَكن هذه النصوص تتحدث عن حالة المواجهة، ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وفي هذه المرحلة لا بد من القوة والثبات، فالشدة والقسوة حالة استثنائية تفرضها ظروف المواجهة، أما الأصل في تخاطب المسلم وتعاطيه فهو الرفق واللين، يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٤].

والأخلاق في رؤية الإسلام ليست قضايا مرحلية تكتيكية بل هي منهجية ثابتة في شخصية الإنسان المسلم. والتزام

ص٢٢.

(١)المصدر السابق، ج٢ ص١١٨.

(٢)سورة التوبة آية ٧٣.

(٣)سورة التوبة آية ١٢٣.

(٤)سورة البقرة آية ٨٣.

الأخلاق مبدأ في جميع المجالات. في التعامل مع الأسرة والمجتمع، وعلى صعيد العلاقات الدولية، وليس في مجال العلاقات الشخصية فقط.

وعلى ضوء هذه التعاليم يجب محاكمة نهج الشدة والتطرف، وخاصة حينما يقترن بشأن الدعوة إلى الله تعالى، والعمل من أجل دينه، فإن الله تعالى قد حدد أسلوب الدعوة إليه، فلا يصح اتخاذ مسلك آخر قد حذر الشرع منه يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]. ولا يطاع الله بالمعصية.

إن الأنبياء والمرسلين أحرص منا على تبليغ رسالة الله وإقامة دينه، وهم من أرفق الناس، وأبعدهم عن الشدة والعنف، ويجب أن يكونوا قدوة لنا وأسوة.

---

(١)سورة النحل آية ١٢٥.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. ابن حبان: محمد، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار بيروت ١٩٦٠م.
٤. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت ٢٠٠٠م.
٥. ابن منظور: محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، دار الجيل ـ دار لسان العرب، بيروت ١٩٨٨م.
٦. اطفيش: محمد بن يوسف، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، مكتبة الرشاد، جدة.
٧. الآلوسي البغدادي: محمود، روح المعاني، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٨. الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٩. الأنصاري: الدكتور عبد الحميد إسماعيل، الشورى وأثرها

في الديمقراطية، الطبعة الثانية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.
١٠. البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٩٩م.
١١. البغوي: الحسين بن مسعود، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م، دار طيبة، الرياض .
١٢. الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣. الحياة: جريدة يومية تصدر عن شركة الحياة الدولية، لندن ٢٠٠٣/١٠/٢٥م.
١٤. الحياة: جريدة يومية تصدر من لندن، العدد ١٤٩٦٢، ١٥ مارس ٢٠٠٤م.
١٥. السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم المنان، مؤسسة الريان، بيروت ١٩٩٧م.
١٦. عودة: عبد القادر، الإسلام وأوضاعنا السياسية، بيروت ١٩٦٧.
١٧. الفنجري: الدكتور أحمد شوقي، الحرية السياسية في الإسلام، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، دار القلم، الكويت.
١٨. القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم/ الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار المغني، الرياض.

١٩. قطب: سيد، في ظلال القرآن، الطبعة الخامسة عشرة ١٩٨٨م، دار الشروق، بيروت.
٢٠. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي و مؤسسة التاريخ، بيروت.
٢١. الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض.
٢٢. الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، تحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٢٣. النمر: الشيخ عبد المنعم، صحيفة الأهرام ١٩٧٧/٦/٣م.
٢٤. الهندي: علي المتقي، كنز العمال، مؤسسة الرسالة الطبعة الخامسة ١٩٨٥، بيروت.

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية

ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١

هاتف: ٨٥٥٥٢١٠ ٣ ٩٦٦+

فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ ٣ ٩٦٦+

الموقع على الإنترنت: www.saffar.org

البريد الإلكتروني: office@saffar.org